نصوص تكميليّة

المنزع العقلاني في الإمتاع والمؤانسة

يلوح من خلال كتب التّوحيدي مظهر مميِّز يتمثّل في محاولة استقصاء الأمور استقصاء مستفيضا. وفي مُسامراته مع ابن سعدان أو في البصائر والذخائر أو الهَوامل والشّوامل تتجسّم هذه الاستفهامات من نوع : ما العقل ؟ ما السّبب ؟ ما العِلّة ؟... وتنقلب هذه الأسئلة في "الإمتاع والمؤانسة" إلى حرص شديد على التوسّع والإطناب. وهذه الملامح تبرز بَعْدُ مظهرا عقلانيا لا يستهان به لأنّها تكشف عن السّعي إلى المعرفة والتعطش إلى الفهم بالرجوع إلى طاقة العقل في التّنقيب والاستقصاء وفي ذلك إيمان بهذه القوّة في الاستيعاب والاستبصار. فما هي قيمة هذا البعد ؟

إنّ أوّل ما توهم به هذه الظاهرة يتمثّل في تصوير المشاغل التي كانت تميّز هذه الفترة الأدبيّة سواء في مستوى عقلية العامة أو عقلية الخاصّة. وهي تشير إلى ذلك المنعرج الّذي أرست فيه الثقافة الإسلامية أركانها فتبلور أمامها شكٌّ لطيفٌ تارةً، عنيف تارة أخرى، وقد استبدّ هذا الشكّ خاصة بالبنية المنطقية التي تلاحم نُضْجُها خلال تطوّر التفكير العقلي منذ نقل العلوم، ومنذ اتّسام التراث الإسلامي بالإنتاج العربي الصميم. فقد اجتهد الباحثون في البتّ في قضية العلّة والمعلول. ولم يخرج التّوحيدي في هذا السّياق عن الإطار العام الّذي أثّر في كيفية التفكير ونمط البحث وهو الإطار الفلسفي. إذ سعت الفلسفة في ذلك العصر إلى إدراك مستوى أنتولوجي من المعرفة. وهو تفكير يقوم على استقصاء المادة ومحاولة اسْتِكْناه الأمور انطلاقا من ذواتها ومن جوهرها. من ذلك بحث أبي حيّان في مجال النفس وملتمساتها في الليلة السّابعة عشرة عند حديثه عن الطّبيعة والصناعة يقول أبو حيّان : "وأَبْيَنُ ما سمِعته في هذا الحديث أنّ الطبيعة فوق الصناعة وأنّ الصناعة دون الطّبيعة، وأنّ الصناعة تتشبّه بالطبيعة ولا تكمل. والطبيعة لا تتشبّه بالصناعة وتكمل. وإنّ الطّبيعة قوّة إلاهية سارية في الأشياء واصلة إليها عاملة فيها بقدر ما للأشياء من الاستحالة والانفعال والمواتاة، إمّا على التمام وإمّا على النقصان" (ج : 2 ص 39 ل 17) ومن ذلك حديثه عن الإرادة والاختيار (ج : 3 ص 105 ل 35) أو في قضية ارتباط السّياسة بالمفهوم الزمني. وفيها تجريد عميق لمعنى السّياسة على لسان أبي سليمان المنطقي (ج : 2 ص 124 – 25 ل 17).

لعلّ هذه العينات توحي بقيمة البحث العقلي وتُنبئ بمدار الفلسفة في القرن الرّابع الهجري. وطريقة أبي حيان تتجسّم في هذا المعطى في الجنوح إلى الشّرح المستفيض الشّامل المستوعب للعناصر المكونة في جميع وجوهها من ذلك حديثه في النفس (ج : 1 ص 147 ل 9). (ج : 2 ص 143 ل 24) في كتاب الإمتاع والمؤانسة. والإشارات الإلاهية ص 337، 382، 383. وَمن ذلك حديثه عن الصورة (ج : 3 ص 136 ل 37) فيتساءل عن أنواعها وهي الإلهية والعقلية والفلكية والطبيعية والاستطقسية والصناعية والنفسيّة واللّفظيّة والبسيطة والمركبة والممزوجة والصاخبة واليقظية والنومية والغائبيّة والشاهدية. وفي غضون هذه النماذج ينمّ البحث الفلسفي عن الحقيقة وعن التّامل واستنطاق التآلف المتوفّر في الوجود الكوني.

فما هي طرافة أبي حيان في هذا المجال ؟

لئن ساهم أبو حيّان في هذا الخِضَمّ الفلسفي العام وانطبع أدبُه بهذا المَيْسَمَ الفكري التجريدي، فإنّ تساؤلا يفرض ذاته : هل نسج التّوحيدي ذلك في نفس الاتّجاه وعلى نفس النسق الّذي توخّاه الفلاسفة ؟ فإن

كان الفيلسوف يبقى في نطاق الحكمة وينضوي تحت خطّ مستقيم أو يكاد، رغبة في استقلاليته عن قيود الحياة المكبّلة، واجتهاده لإنجاز بحث تجريدي وتأمل عميق يقوده نحو المطلق فينقاد نحو المثالية فإنّ التّوحيدي قبل كل شيء أديب. وهذا الطابع الأدبي المَحْضُ لم يمنع أبا حيّان من النهل من الفلسفة. وهي كما سلف أن أبرزنا من خلال الأمثلة طابع التفكير في القرن الرابع ولا يمكن للمفكر أن يتجاهل حقيقتها أو أن يتنكر لها. ولَيْسَ هذا الإلزام اختياريا فحسب وإنَّمَا يتأكد بالقياس إلى اعتبارين :

أ– اعتبار الرؤية التي احتضنها أبو حيان التّوحيدي. وهي عصارة ثقافته وزبدة الآراء التي استخلصها خلال احتكاكه بالمفكرين والفلاسفة.

ب– اعتبار الأرضية التي عاشها التّوحيدي وهي مرتبطة بالتيار العام الّذي ساد جو السّياسة في القرن الرّابع وأثّر في كل مجالات الحياة. فلم ينحصر الانهيار والتشتت في ميدان السّياسة بَلْ توتر الأمر في المستوى الاجتماعي وفي المستوى الأخلاقي والاقتصادي. فاتضحت معالم النفاق والمصانعة والنزاع والحرص على المناصب والحظوة. ووجب على التّوحيدي أن يجد لنفسه في هذا المحيط المتردّي منزلة معينة.

هذان الاعتباران كانا مطية النقد عند أبي حيّان : اعتبارٌ ذاتي هو حصيلة التجربة الفكرية والرؤية الفلسفية، واعتبارٌ موضوعي هو الجوّ العام الّذي مارسه التّوحيدي وتأثر به تأثرا واضحا في كلّ مؤلفاته. وقد مثّل هذان الاعتباران القاعدة التي انطلق منها أبو حيّان ليصوغ منهجه في مادة التفكير المتعلق بمنزلة الإنسان. فنظر في عناصر التناقض بين ما يرنو إليه الإنسان وما يمارسه ويعيشه.

وإذا توقّفنا عند نوعية تفكير الفلاسفة، نجد أنهم نزّلوا هذا التفكير في إطار المثالية التي تبنوها عن اليونانين. لذلك كثر في كتاباتهم اللجوء إلى الرمز والتصوير. أمّا التّوحيدي فإنّه تبنّى نوعية خاصة في التفكير إذ روّض نفسه وقلمه على الارتباط الوثيق بواقعه فجعل منه المادة الخام التي يركّز عليها تأمله ووصفه ونقده. ولعلّنا لا نبالغ عندما نزعم أنّ هذا النّمط من التّفكير أعاد الأخلاق إلى بعدها الاجتماعي الوظيفي. ولذلك نلمس من خلال أدب التّوحيدي تقلُّصَ ظلّ الفضيلة واستفحال الرّذيلة في عصره، وكأنّها ألصق بطبيعة البشر وأذهب في سلوكهم. وقد أطنب أبو حيّان في الحديث عن النفس الحيوانية ومظاهرها الشّهوية والغضبية (الإمتاع والمؤانسة ج : 2 ص 41 ل 17). وكذلك (ج : 2 ص 113 ل 24)

لقد خاض التّوحيدي تجربة مع واقعه. وقد توفّرت فيه خصالُ التعطش وحبّ الاستقصاء والتحمس والدراسة والاطّلاع الواعي. وكانت هذه التجربة مشحونةً بسعي جدّيّ ينحو منحى المعرفة المتصلة بملابسات الإنسان من حيث هو كائن متفاعل مع واقع ما. ولم يخف التّوحيدي هذا الطموح. وما كان يتسنّى له أن يخفيَه في جوّ أبرزنا أنّه يتّسِم بصفات مختلفة ولكنّها تنتهي كلُّها تقريبا إلى شكل الانهيار الّذي طبعت به السّياسة.

الباجي القمرتي / كمال عمران/ منصّف الجزار

"أبو حيّان بين الفكر والوجدان". المركز القومي البيداغوجي. د.ت. ص 45

فلسفة المقابسات

تؤلف فلسفة المقابسات تصورا خاصا للحياة وللكون ولعلاقة الإنسان بالكون وعلاقة الناس بعضهم ببعض، ولها مفهومها الخاص عن المعرفة والسّعادة والخير والأخلاق عموما. ويقوم جوهر هذه الفلسفة على تصوّر سلسلة من الموجودات الروحانية أعلاها الأوّل، أو الفاعل الأوّل، أو العلة الأولى، أي الباري تعالى، ثم العقل والنفس والطبيعة. ويلحق بهذا العالم الروحي عالم الأجرام السّماوية الحية الناطقة. ويقابَل هذا العالم الروحاني العلوي، العالم الهيولاني السّفلي، أي عالم المادة والحسّ، أي عالمنا هذا الّذي نعيش فيه.

والأول هو الموجود الحقّ. وهو على كل ما يُرى ويوجد. وهو مُنبجس الأشياء كلها ومنبعها، عنه تفيض، وإليه تعود، وفيه تغيض. ولَيْسَ لشيء وجود إلا للباري الحقّ. وعلى هذا فلَيْسَ لأي موجود من الوجود إلا على قدر ما يبلَغه من الفيض، ويخلص إليه من الجود الإلاهي. ولمّا كان الباري هو مصدر كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، فإذن هو كلّ شيء في الحقيقة. وهذا عينُ وَحْدَةِ الوجود عند المتصوّفة. يقول أبو سليمان المنطقي : "لا تعجب أنّ الحال في هذا المعقول دائرة متى فرضت شيئا فيها كان مفروضك على ذلك، لأنك تجد مطلوبك من أيّة ناحية التمسته، وتلقى محبوبك من أيّة جهة أتيته. وهذا لأن الكل هو، وهو الكل". [مقابسة 52] ومعنى هذا، بتعبير آخر، أنّ علاقة الباري بجميع الأشياء لَيْسَت كعلاقة الموضوع بأشياء خارجة عن ذاته، وإنّمَا باعتبارها معقولات قائمة في ذاته يؤلف تعقّله الدائم لها جوهر وجوده وحياته.

ولا يستطيع الإنسان أن يعرف أيّ شيء عن الباري سوى أنه موجود، مطلق، وأنّه عقل محض. وكل نعت ينعت به عدا الوجود نفي الصفات عنه، ونفي كل ما يخطر ببالنا عن انيته، فنقول : "إن الفاعل الأول لا قصد له في أفعاله ولا غرض ولا مراد ولا اختيار ولا روية ولا توجه ولا عزيمة ولا معالجة ولا مزاولة ولا محاولة.. فهو، جلّ وعلا، عليّ عن هذه الأغراض والعلل والمسالك والسّبَل". [النوشجاني، مقابسة 69]

ولاكتمال ذات الأوّل، ولتعلّقه الدائم لذاته، فاض عنه، أو صدر عنه، موجودثانٍ هو العقل، أو العقل الكلي بعبارة أدق، وهو أكمل الموجودات، بعد الباري تعالى، وأشرفها، وأعظمها تشبها به، وقربا منه، وتأملا له. وهذا العقل جوهر بسيط، مدرك للأشياء بحقيقتها دفعة واحدة لا بتوسط زمان. ويوجد في كل إنسان قسط جزئي من العقل على قدر استعداده وتقبّله. ومن شأن هذا العقل الجزئي، أعني عقل الإنسان، أن يصير كلا. أي من شأن عقلي وعقلك، وعقل أي إنسان، مثلاً، أن يعقل كل المعقولات التي من شأنها أن تعقل، إن لم يقصّر به الزمان، أو يعترضه عائق، فيصبح عقلا كليا. وعلى هذا تتفاوت درجات العقول الجزئية التي للناس. وأدناها عقول العامة، وهي قوة متصاعدة عن الطبيعة قليلا. فإذا ارتفع الإنسان عن طبقة العامة، في حاله وعلمه، ترقت قوته العقلية حتى تلتبس بالنفس الناطقة التباسا ما، إلا أنه مايزال معها من الطبيعة. فإذا صفت قوة الإنسان العقلية صفاء تاما من آثار الطبيعة، أصبح عقلا كليا، فيلحظ الأشياء بحقائقها، مخلصة من موادها. وهذه حال من وصل إليها، وحصل عليها فقد بَلَغ دار النعيم، وحاز السّعادة العظمى.

وثالث الموجودات الرّوحية النفس الكلّية. وهي روح الله منبجسة بتوسّط العقل. ويدخل منها قبس في الإنسان فتسمَّى عند ذلك بالنفس الناطقة، وبها صار الإنسان ناطقا، أي عاقلا، متميزا عن سائر الحيوان. والنفسُ وإن كانت تحلُّ في الجسم، فهي قائمة بذاتها، غيرُ ملابسة للجسم كملابسة الدهن للماء ولا تابعة للمزاج، بمعنى أنّه لا علاقة لها مع الجسم ولا صلة ولا فعل ولا انفعال ولا تحريك ولا تصريف. وإنّمَا نقول إن النفس في الجسم بمعنى أنّ قواها هي السّابحة فيها، والباديةُ عليه [مقابسة 82. وانظر أيضا رأي أبي حيان في المقابسة 97].

ورابع هذه القوى الروحية الطبيعة. وهي حياة تنفذ في الأجسام فتعطيها التخلق والتصور بالصور الخاصّة بواحد واحد منها. وكأنها القوة السّائرة من المبدأ الأول إلى جميع الأشياء المنفعلة لها والقابلَة لها، الرابطة بينها وبينه. [المقابسة 89] وهذه القوة هي آخر القوى الروحية، وأدناها درجة، ولَيْسَ دونها إلا الهيولي العماء، أي المادة المظلمة، أي عالمنا هذا المادي قبلَ أن يكتسب نظامه. وهي تحلّ في الأجسام فتكون فيها مبدأ للحياة والنّمو.

محمد توفيق حسين. مقدّمة المقابسات لأبي حيان التّوحيدي دار الآداب. بيروت ط 2/1989 صص 31/38

الأنشطة التأليفيّة

في القضايا

1– صنّف نصوص "الإمتاع والمؤانسة" إلى نصّوص ذات طابع سياسي / ذات طابع ثقافي/ ذات طابع ديني.

2– صنّف نصوص "المقابسات" إلى نصّوص ذات طابع فكري تجريدي/ ذات طابع ثقافي عام / ذات طابع نفعي عملي.

3– بيّن التقاطعات القائمة بين نصوص "الإمتاع والمؤانسة" ونصوص "المقابسات".

4– اجمع ملامح المنزع العقلي في نصّوص كلٍّ من "الإمتاع والمؤانسة" و"المقابسات".

5– ما الفرق الدّينية التي تحدث عنها التّوحيدي ضمنا أو تصريحا ؟ اذكر أهمّ أسباب الاختلاف بينها.

6– استخلص من نصوص "الإمتاع" و"المقابسات"

* صورةَ السّائس المثالي
* دورَ المثقف في المجتمع
* صورةَ الرّعيّة المثاليّة

7– صنّف القضايا المطروقة في نصوص الكتاب ثم استخلص من ذلك ملامح الحياة العقلية في القرن الرّابع للهجرة.

في الحجاج

1– ما الأبنية الحجاجية التي اعتمدها التّوحيدي في نصّوصه ؟

2– اجمع الحجج التي وردت في نصوص التّوحيدي وبيّن نوع كلّ منها ودرجة تواتره.

3– ما النّصوص التي طغت عليها الصبغة التّعليمية ؟ وبِمَ تفسّر ذلك ؟

4– اجمع تجلّيات العقل التي ظهرت في النّصوص الحجاجيّة.

5 – اذكر المتحاورين الّذين ذكروا في النّصوص وصنفهم ثم اذكر خواتم الحوارات التي دارت بينهم.

في اللّغة والبَلاَغَة

1– اجمع الحقول المعجميّة التي درستها في جداول.

2– ما الرّوابط المنطقية الأكثر تواترا في نصوص التّوحيدي ؟ وبِمَ تعلّل تواترها ؟

3– اجمع مظاهر الصّنعة اللفظيّة التي اعتمدها التّوحيدي في نصّوصه.

4– ما الوظائف اللغويّة التي مال إليها التّوحيدي أكثر من سواها ؟ وبِمَ تعلّل ذلك ؟

عُـــروض

* اِبْنِ عَرْضًا بمفردك أو بالتعاون مع فريق صغير (وهو الأفضل) حول أحد المواضيع التالية :

1– المنزع العقلي في "الإمتاع والمؤانسة".

2– المنزع العقلي في "المقابسات".

3– القضايا الفكرية في "الإمتاع والمؤانسة" و"المقابسات" بين الأدب والفلسفة.

اختبارات

موضوع 1

لا يكمن المنزع العقلي في "الإمتاع والمؤانسة" و"المقابسات" إلاّ في الطرائق الحجاجيّة التي اعتمدها التّوحيدي لمعالجة قضايا عصره.

ما مدى صحّة هذا الرأي ؟

موضوع 2

هل كان اعتماد العقل كافيا ليتّفق أهلُ الفكر والرأي في ما تناولوه من قضايا دينية وسياسية وفكرية في "الإمتاع والمؤانسة" و"المقابسات" ؟

تحليل نصّ

السّياسةُ الالاهيةُ والسّياسةُ البشريّةُ

... فإنْ قَالَ قائِلٌ : فكيْفَ مُثّلت سياسةٌ إلاهيّةٌ بسياسةٍ بشريّةٍ وأيْنَ هذهِ منْ تلكَ ؟

فالجوابُ أنَّ البَّشرَ المسكينَ لم يوجد هذه السّياسة من تلقاء نفسه ولا بما هو به مهينٌ ضعيفٌ عاجزٌ مسكينٌ. بَلْ بما فاض عليْهِ منْ تلك القُوى وتلكَ الصُّور. فهوَ إذا أبْرزَ شيئًا أبْرزَه على مثالِ تلكَ، لأنّه قد أُعطي القالبَ، فقد سهُلَ عليهِ أنْ يفرغَ فيه. ووهبَ له الطَّابعَ فهو يختمُ به. وهُيِّئ على ذلك فهو يجري عليه. وهذا سوْقٌ إلاهي وإنْ كان الانسياقُ بشريًّا. ونظْمٌ رُبوبِيٌّ وإنْ كان الانتظامُ إنْسيًّا. وفي الجمْلةِ إحدى السّياستيْن أعْني البشريّةَ هي ظلٌّ للأخرى أعْني الإلاهيّةَ. والسُّفليّاتُ مُنْقادةٌ مُنْفعلةٌ للعلويّاتِ والعلويّاتُ مُستوْلياتٌ على السُّفليّاتِ بحقّ العدْلِ وماهو مقتضاها. ولأنَّ هذه فواعلَ أعْني العلوياتِ، وتلْك قوابلَ أعْني المُنفعلاتِ. ووجب ذلك لأنّ الصُّورةَ في الفاعل أغلبُ والهَيولىَ في القابلِ أغلبُ والعالَمان مُتواصلانِ والسّياستانِ مُتماثلتانِ والسِّيرتانِ مُتعادلتانِ والتَّدبيرانِ مُتقابلانِ. ولكنَّ التّدبيرَ إذا نفذَ في السُّفليِّ يُسمّى بشريًّا، وإذا نفذَ في العلويِّ يُسمّى إلاهيًّا، وإنْ كانَا في التَّحقيقِ إلاهيّيْنِ. وإنَّمَا اختلفا بحسب الصُّدور والوُرود والفُصولِ والوُصولِ والشّخوصِ والبلوغِ. والعاداتُ جاريةٌ بأنْ يُشبّهَ الإنسانُ شيْئا من الأشياءِ بالشّمس والقّمر ولا يُشبّه الشّمسَ والقمرَ بشيْءٍ آخر لأنَّ للأعْلى النَّعتَ الأوّلَ، وللأسفلِ النّعتَ الأرْذلَ. فهذا كمَا تَرَى.

الإمتاع والمؤانسة.

تحقيق أحمد أمين وأحمد الزّين. الجزء الثالث

اللّيلة الخامسة والثلاثون : ص 114–115

* حلّل النّصّ تحليلا مسترسلا مستعينا بما يلي :
* ما تصوّر التّوحيدي للعالم وللقوى المركبة للإنسان ؟ وما صلة العقل بكلّ ذلك ؟
* ما نوع القضيّة التي يعالجها التّوحيدي في هذا النّصّ ؟ وما صلتها بالمناخ الفكري الّذي عاش فيه ؟
* ادرس أساليب البديع في هذا النّصّ، ثم بيّن مدى ملاءمتها لطبيعة الموضوع المطروق.
* هل تعتبر هذا النّصّ تفسيريا / تحليليا / تعليميا ؟ علّل جوابك.